

الحشيشية (*) الارهاب والسياسة في الاسلام الوسيط

تأليف : برنار لويس Bernard Lewis
ترجمة : أنيك بيليسي Annick Pélissier
تصدير : مكسيم رودنسون Maxime Rodinson
باريس - افريل 1982 (212 ص)

بقلم : الصادق المساوي

يعد كتاب « برنار لويس » - رغم قدمه (1) - محاولة هامة لتدبر تاريخ
« الدعوة الاسماعيلية الجديدة » التي رفض أتباعها مبايعة الخليفة الفاطمي
« المُستَعلي بالله » (487 - 495هـ) وقالوا بإمامة أخيه الأكبر « نزار » فعرفوا
بـ « النزاريّة » وسُمّوا - في الشام - بـ « الحشيشيّة » وتحتوى الترجمة

(*) اسم أطلق على أتباع الدعوة الاسماعيلية الجديدة في الشام . ولا تذكر المصادر العربية القديمة
غيره . ومنه وضعت الفرنسية والانجليزية كلمة (Assassin) . انظر كتاب لويس ص 45 .
ويمكن الرجوع إلى :

(S. de Lacy : Mémoire sur la dynastie des assassins. in Mémoires de
l'Institut Royal, IV, 1818 p. 1-85

(1) ظهر النص الانجليزي سنة 1967 بعنوان : (The Assassins. A Radical Sect in Islam)
ونقل الكتاب إلى العربية سنة 1971 بعنوان : - الدعوة الاسماعيلية الجديدة - ترجمة سهيل
زكار - دار الفكر .

الفرنسية لهذا الكتاب على تصدير وضعه « مكسيم رودنسون » (2) (من صفحة 7 إلى صفحة 34) وستة فصول هي :

- (1) اكتشاف الحشيشية (من صفحة 35 إلى صفحة 54)
- (2) الاسماعيليون (من صفحة 55 إلى صفحة 73)
- (3) الدعوة الجديدة (من صفحة 75 إلى صفحة 102)
- (4) الدعوة في فارس (من صفحة 103 إلى صفحة 137)
- (5) شيخ الجبل (من صفحة 139 إلى صفحة 167)
- (6) غايات ووسائل (من صفحة 169 إلى صفحة 186)

ولقد اقترح « رودنسون » في تصديره للكتاب مشروعا لكتابة تاريخ الاسماعيلية بعيدا عن النظريات التي تهمل دراسة المجتمع وأحواله . وهو يرى أن بعض حواضر العالم الاسلامي قد شهدت في القرن الثالث ظهور فئات اجتماعية نشيطة ورثت ثقافة الفرس وعاداتهم وأقبلت على تراث اليونان وفلسفتهم حتى أنها لم تعد تقنع بالنقل والرواية وقد ضمت هذه الطوائف أصنافا من الساخطين على السلطان الناقمين على السلطة ممن وجدوا في تعاليم الشيعة وعقائدها ملاذا للتعبير عن غضبهم والتصريح بمعارضتهم فنشأت الاسماعيلية تيارا عنيفا يرفض ما انتهت إليه « الاثنا عشرية » من مسالمة ومهادنة وسكينة

وخصّص المؤلف (3) الفصل الأول من كتابه للحديث عن « الحشيشية » في مؤلفات المسيحيين . ويعود اهتمام الغربيين بهذه الفرقة إلى القرن الثاني عشر . فقد عجّت تواريخ الصليبيين بذكرها ساعة أصابت خناجر « الفدائيين » « كونراد دو منفرات » Conrad de Monferrat صاحب مملكة

(2) مستشرق فرنسي ، مدير البحوث في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا .

(3) مستشرق انجليزي . مدرس بجامعة « برنستون » .

القدس اللاتينية فتحدث عنهم الرّاهب « بروكاردوس » Brocardus وذكرهم « أرنولد دو لوبك » Arnold Lübeck وأشار إليهم الرّاهب « ايف لوبروتون » Yves le Breton وغيرهم ولكنّ العداء الدينيّ والجهل بعقائد الاسماعيلية جعلنا من مقالات الصليبيين حديث هزى وتعصّب . وقد استمرت الحال حتّى القرن السّابع عشر حين نشر « برتلمي دو هربلو » Bartholomé d'Herbelot سنة 1697 مكتبته الشّرقية التي تعدّ بحقّ أوّل محاولة هامّة لفكّ لغز الحشيشية » ومنذ أن قرأ « سلفستر دو ساسي » Silvestre de Sacy « مذكرة عن الأسر الحاكمة للحشيشية » سنة 1809 أمام المجمع الفرنسي زاد اهتمام الغربيين بهذه الفرقة الإسلامية فوضع المستشرق النمساوي « فان هامر » كتابا بعنوان « تاريخ الحشيشيين » (4) لكنّه تعصّب عليهم حتّى أسرف فاعتبرهم « قتلة مجرمين » ولعلّ الفضل الأكبر في دراسة الاسماعيلية النزارية يعود إلى بعض المستشرقين الروس من أمثال « زربين » Zarubin و« سمينوف » Semionov

ثمّ إن المؤلّف حاول في الفصل الثاني دراسة نشأة الاسماعيلية . وهو يشير إلى أنّ الحديث عن « دور السّتر » (من 148هـ سنة وفاة جعفر الصادق إلى أواخر القرن الثالث هجري) عسير شاق . فلا يعرف التاريخ شيئا يقينا عن الاسماعيلية في هذه الفترة . ويرى أن هذه الفرقة الإسلامية قد نشأت في عهود غلب عليها الاضطراب الاجتماعي والقلق الثقافي : ففي الرّيف انتشرت المزارع الكبرى ممّا سبّب فقر الفلاحين والمستأجرين . وفي المدن نمت التجارة والصناعة نموّاً هائلا أغرى الفقراء والمنبئين بالتزوح . فغدت حواضر الاسلام بلادا فيها يُجْأور البؤسُ والعوزُ ألوانا من التّرف ولين العيش . ثمّ أن هذه الفترة شهدت أزمة ثقافية حادة فقد واجه الفكر الإسلامي معضلات شتّى

(4) ظهر الكتاب بالالمانية سنة 1818 ثم ترجم إلى الفرنسية سنة 1833 .

ولدتها فلسفة اليونان وحكمة الفرس وحقائق التاريخ . وفي هذا الاطار بدت الاسماعيلية قادرة على حلّ هذه المشاكل . فقدّم دُعائها للمثقفين نظاما فكريا رفيعا يقوم على الفلسفة الافلاطونية وأغروا الأتقياء من المسلمين بدفق من الايمان العاطفيّ تدعّمه شواهد من مِحَن الأيّمة وفتَنُوا الحانقين بسحر حركتهم المنظّمة تنظيمًا مُحَكَمًا . وهكذا نمت الاسماعيلية حتى كان « دور الظهور » فجاءت بالدعوة وأسست دولتها في افريقية . وحين فتحت عساكر الفاطميين مصر غدت الاسماعيلية أكبر قوة إسلاميّة ولكنها فشلت في القضاء على الخلافة العبّاسيّة واستطاعت السّنّة أن تصمد بفضل جهود « الاتراك » وكانوا أقواما حديثي عهد بالاسلام متحمسين في الدفاع عن عقائد الأئمّة . ولعلّ السبب الأساسي لهذا الفشل يعود إلى ما أصاب الدعوة الاسماعيلية من ضعف ووهن . فقد واجه الخليفة الرابع صعوبات كثيرة أثناء فتحه لمصر حتّى أنّه دُفِع إلى قتال « القرامطة » وعندما اختفى الخليفة السادس الحاكم بأمر الله سنة (411هـ) 1021م خرج « الدروز » عن عقائد الفاطميين وقالوا إنّ الامام ربّاني لا يموت .

وعرف الفاطميّون في منتصف القرن الخامس صعوبات شتّى (5) : فقد عمّ الوباء والقحط وعمت الأقوات وقامت الفتن والثورات فاستدعى « المُسْتَنْصِرُ » (427 — 487هـ) أمير الجيوش « بدرًا الجمالي » من « عكّا » فتمهّدت الأمور ولكنه استولى على التدبير ولم يبق للخليفة أمر ولا نهى إلا الركوب في العيدين (6) وغدا الخلفاء منذ ذلك العهد ألعبوبة في أيدي قوّادهم ، حتّى أنّ الوزير « الأفضل » بايع « المستعلي » خليفة بعد أبيه الذي نصّ على

(5) جاء في « النجوم الزاهرة » لابن تغري بردي ج 5 ص 2 ما يلي :
« وحدث في أيام المستنصر بمصر الغلاء الذي ما عهد بمثله ... ودام سبع سنين حتى أكل الناس بعضهم بعضاً وحتى قيل أنه بيع رغيف واحد بخمسين ديناراً » .
(6) « ودام في الخلافة وهو كالمحجور عليه مع بدر الجمالي ثم من بعده مع ولده الأفضل » المرجع السابق ، ص 23 .

إمامة « نزار » فكان الانشقاق الأكبر في الدعوة الاسماعيلية . ثم كان انشقاق آخر بعد مقتل « الأمير بأحكام الله » (495 — 524 هـ) فقد رفض بعض الأتباع مبايعة « الحافظ لدين الله » (524 — 544 هـ) وقالوا بامامة « الطيب بن الأمر » وهكذا انقسمت الدعوة الاسماعيلية إلى « مستعلية » و « طيبية » كما انقسمت من قبل إلى « مُستعلية » و « نزارية » .

وفي الفصل الثالث ترجم للمؤلف « للحسن الصباح » الذي قام بأمر الدعوة التزارية في فارس . فقد طوف الرجل في البلدان كثيراً وزار مصر وفيها أقام قبل أن يستقر في « الديلم » ينشر الدعوة ويمتلك الحصون والقلاع فبعد أن أخذ « أَلْمُوت » بالحيلة والمكر سنة (483 هـ) 1090 م استولى على « لَمَسَر » سنة (495 هـ) 1102 م فد « زوزن » و « قايين » و « طَبَس » و « تُون » و « جِرْد كُوِه » و « ملك شاه دِز » ، وردّ عساكر « ملك شاه » السلطان الأكبر وجيوش « سَنَجَر » وصمد أمام حملات السلطان « محمد تبر » وهو في كل ذلك يرسل « فدائييه » لاغتيال أعدائه : فقتل « نِظَام المُلْك » سنة (485 هـ) 1092 م والوزير « الأفضل » سنة (515 هـ) 1121 م وغيرهما .

وتحدث المؤلف في الفصل الرابع عن الدعوة في فارس بعد وفاة « الحسن الصباح » سنة (518 هـ) 1124 م . فقد تولى السلطة في قلعة « أَلْمُوت » « كَسِيَا بَزْرَكْ أَمِيد » ثم ولده « محمد » من بعده . فانصرفا إلى تدعيم أركان الدولة الجديدة وتوسيع أراضيها . ويبدو أن علاقة « التزاريين » بالسلاجقة أخذت تميل إلى المسالمة تشهد على ذلك عمليات الاغتيال التي أصبحت توجه إلى أعداء السلطان السلجوقي ومنافسيه كالخليفة العباسي « المسترشد » وولده « الرّاشد » . وحين توفي « محمد بن كَسِيَا بَزْرَكْ أَمِيد » سنة (557 هـ) 1162 خلفه ابنه « الحسن الثاني » على ذكره السلام » فأحدث سنة (559 هـ) 1164 م في الاسماعيلية بدعاً إذ وضع المنبر قبالة القبلة وكانت العادة تقضي بوضعه على يسار المحراب وادّعى أنه من سلالة « نزار » وبشر

« قيامة القيامات » معلنا أن دولة الشريعة قد دالت وأن الأسرار قد كشفت فما على « المؤمنين » بأس في ترك العبادات . ولكن بعض الأتباع لم يرضوا عن هذه البدع فقتل « الحسن » مطعونا سنة (561هـ) 1166م وخلفه ولده « محمد الثاني » الذي مات مسموما سنة (607هـ) 1210م . وحين آلت الدولة إلى ولده « جلال الدين حسن » أبدى امتعاضا من عقائد « القيامة » وسعى جاهدا حتى يُقبل في حظيرة الاسلام الكبرى فراسل خليفة بغداد و« خوارزم شاه » وتبرأ من اراء أبيه وجده حتى سمي « المسلم الجديد » . وقد اختلف الناس في تفسير أعمال « جلال الدين » ، فالجويني لا يشك في صدق الرجل . في حين يرى « فان هامر » أن الأمر لا يعدو أن يكون محاولة كاذبة لحماية نظام التزارية الذي غدا معرضا للعنة المسلمين (7) وقد ساءت أحوال الدولة حين تولّى أمرها « محمد الثالث » سنة (618هـ) 1221م فقد كان صيبا اعتكف في قصره واعتزل الحياة العامة ثم أصيب بالماليخوليا وقتل سنة (651هـ) 1254م فخلفه ولده « ركن الدين خور شاه » الذي كان عليه أن يواجه خطر « المغول » الزاحف . فقد عبرت جيوشهم نهر « جيحون » سنة (618هـ) 1221م واستولت على « بلخ » و« مرو » و« نيسابور » بعد أن قهرت « سمرقند » و« بخارى » . وفضل « ركن الدين » الاستسلام سنة (654هـ) 1256م فاعدم وأبسد التزاريون في « الديلم » و« قوميس » و« قومستان » .

وخصّص المؤلف الفصل الخامس من كتابه لدراسة تاريخ « التزارية » في الشام . فقد اختار الاسماعيليون هذه الأرض لنشر دعوته لان سوريا كانت تضم فرقا متعددة من المسلمين . ففيها يُقيم « الدروز » و« النصيرية » (العلوية) و« الاثنا عشرية » وقد شجعتهم الظروف السياسية على الاستقرار فيها فبعد مقتل « تئش » أخي السلطان الأكبر « ملك شاه » انقسمت سوريا إلى دويلات يحكمها أمراء السلاجقة وقوادهم . وكان الصليبيون قد ظهوروا

في تلك الأنحاء وأسّسوا ممالك جعلت من « الرها » و« أنطاكيّا » و« طرابلس » و« القدس » قواعد لها . ورغم أن قوّاد « الحشيشية » الأولين فشلوا فشلا ذريعا في اتّخاذ الشام مركزا لهم فإنّ رئيسهم « سينانا » المعروف بـ « راشد الدين » استطاع بدهائه وحنكته أن يمتلك حصني « الرصافة » و« الخوابي » بعد أن استولى على « العليقة » . ويذكر التاريخ أن « راشد الدين » حاول مرتين قتل « صلاح الدين الأيوبي » الذي يبدو أنه صالح الحشيشية وسألهم . ولعلّ أشهر الأعمال التي قام بها « شيخ الجبل الرهيب » هي قتله للمركز « كونراد دو منفرات » ملك القدس سنة (588هـ) 1192م . وبعد وفاة راشد الدين (سنة 588هـ) أخذ أمر « الحشيشية » يضعف وذكرها يخبئ . فقد سقطت قلاعهم في فارس فاتحدوا مع بقية المسلمين لردّ الخطر المغولي . وحين أدرك « بيسرس » أن لا خطر عليه منهم فتح قلاعهم وامتلك حصونهم فانهى أمرهم سنة (668هـ) 1273م .

وختم المؤلف كتابه بفصل جمع فيه بعض الاستنتاجات التي توحى بها دراسة التزارية فأكد أن « الاغتيال السياسي قديم قدم الانسانية فالاسماعيليون لم يبتدعوا « الارهاب » وإنما استخدموه كسلاح سياسي ذي شأن فلقد أدرك « الحسن الصباح » أنّ دعوته لا تستطيع قهر السنّة وفطن إلى أن « فدائييه » لا يقدرّون على مغالبة عساكر السلاجقة فأحدث قوة منظّمة قادرة على التخلص من بعض الأعداء الخطيرين واستند إلى سياسة امتلاك الحصون والقلاع يتخذها قواعد آمنة لأتباعه : منها ينطلقون لقتل القادة والأمراء والوزراء أو القضاة والعلماء . وذكر المؤلف أن الدارس لتاريخ هذه الفرقة لابدّ أن يقف على مسائل أربع هي :

(1) أنّ التزارية كانت خطرا حقيقيا هدّد النظام السني طيلة أحقاب

كثيرة .

(2) أن هذه الفرقة كانت حركة من حركات ثورية كثيرة آمنت بظهور « المهدي » .

(3) أن الحسن الصباح نجح في توجيه « الغضب الأعمى » و « الرغبات المبهمة » إلى هدف سياسي محدد .

(4) أن هذه الحركة الثورية قد انتهى أمرها إلى الفشل لأنها لم تنجح في القضاء على السنة وعقائدها .

الصادق الميساوي

دكتورا دولة (تابع)

اسماء الزملاء المدرسين بكلية الآداب والعلوم الانسانية ، الذين ناقشوا أطروحة
« دكتورا دولة » ، وذلك منذ صدور « حوليات الجامعة التونسية » سنة 1964 .

الاسم	الموضوع	الجامعة	تاريخ المناقشة
محمد صالح المراكشي	تفكير رشيد رضا من خلال مجلة المنار (1898 - 1935)	الجامعة التونسية	8 جوان 1983